

سورة الإسراء

﴿الآيات: 41 - 44﴾

الدرس

12

أهداف الدرس

- 1- أن أتمثل أن القرآن الكريم فيه تذكير لأولي الألباب.
- 2- أن أستنتج ما تشير إليه الآيات من الدلائل العقلية على وحدانية الله.
- 3- أن أستحضر أن الكون كله يسبح بحمد الله تعالى.

تمهيد

بعد أن نبه سبحانه على فظاعة فعل من جعل لله شريكا ونسب إليه الولد، أتبع ذلك ببيان أنه قد ضرب في القرآن الأمثال للناس ليتدبروا ويتأملوا فيها، إلا أن ذلك ما زادهم إلا نفورا عن الحق، محتجا عليهم بأنه لو كان مع الله آلهة أخرى كما يزعمون لنازعته في ملكه كما هي عادة الشركاء، وكيف يكون ذلك وكل ما في السموات والأرض يسبح بحمد الله، بدلالة أحوالها على توحيده، وتقديسه وكمال قدرته، ولكنهم لجهلهم وغفلتهم لا يدركون تلك الدلائل الظاهرة.

فكيف يكون القرآن مذكرا وهاديا للناس؟ وما هي دلائل وحدانية الله في هذه الآيات؟ آخر؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي لِقَاءِ الْفَرَعَاءِ لِيَدَّكَرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١
فَلَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا اتَّفَعُولُونَ إِذْ أَتَا لَتَبَغُوا الرَّايَ الْعَرْشَ سَبِيلًا ۝٤٢
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُفُؤُونَ عُلُؤًا كَبِيرًا ۝٤٣ يَسْبِيحُ لَهُ السَّمُؤَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ

وَمَنْ يَفْعَلْ فَإِنَّهُ يَفْعَلْهُ بِحَسْبِ غَبُورٍ ۚ وَلَا تَقْفَلْ بَابًا تُقْفِلُ فَتَكُونَ تَسْبِيلًا لِّغَيْرِكَ ۚ إِنَّكَ كَانَتْ

حَلِيمًا غَبُورًا ﴿٤٤﴾ [سورة الإسراء: 41 - 44]

الفهم

الشرح :

صَرَفْنَا : صرفنا وبيننا فيه الحكم والمواعظ.

لِيَذَكَّرُوا : ليتعظوا ويتدبروا بقولهم.

نُفُورًا : النفور شدة الإعراض.

استخلاص المضامين :

1- ما الغاية من تنزيل القرآن الكريم بأحكامه وحكمه وأمثاله؟

2- كيف رد الله عن جعل له شريكا ويعتبر الملائكة بنات الله؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولا: تنزيل القرآن الكريم للتذكروالاعتبار:

لما ذكر الله عز وجل فطاعة قول المشركين بأن الملائكة بنات الله، أعقب ذلك بأن في القرآن هديا كافيا، ولكنهم لا يزدادون إلا نفورا من تدبره. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِقَاءَ الْفَرِيقَيْنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾. قرأ الجمهور ﴿صَرَفْنَا﴾ بتشديد الراء على معنى صرفنا فيه الحكم والمواعظ، وقرأ الحسن (صرفنا) بتخفيف الراء على معنى صرفنا فيه الناس إلى الهدى بالدعاء إلى الله. وقال بعض من شدد الراء: إن قوله: ﴿فِي﴾ زائد، والتقدير ولقد صرفنا هذا القرآن، وهذا ضعيف.

وقوله سبحانه: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾، وهي قراءة الجمهور، أصله "يتذكروا" فأدغمت التاء في الذال لتقارب مخرجيهما، وقرأ حمزة والكسائي (ليذكروا) بسكون الذال وضم الكاف.

وضمير ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ عائد إلى معلوم من المقام دل عليه قوله: ﴿أَقْلَصْ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْتِ﴾ [الإسراء: 40] أي: ليذكر الذين خوطبوا بالتوبيخ في قوله: ﴿أَقْلَصْ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ [الإسراء: 40]، فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، أو من خطاب المشركين إلى خطاب المؤمنين. وجملة ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا بُعُورًا﴾ في موضع الحال، وهو حال يقصد منه التعجيب من حال ضلالتهم. والنفور عبارة عن شدة الإعراض تشبيها بنفور الدابة، وقد استعير هنا لإعراضهم تنزيلا لهم منزلة الدواب والأنعام.

ثانيا: تنزيه الله عما ينسب إليه المشركون من الشريك والولد؛

قال تعالى: ﴿فَلَوْ كَانَ مَعَهُ آلَ اللَّهِ كَمَا تَقُولُونَ إِذْ آلَاءُ بَتَّغُوا الرَّايَ الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ عاد القرآن الكريم إلى إبطال تعدد الآلهة زيادة في استئصال عقائد المشركين. والمخاطب بالأمر بالقول هو النبي ﷺ لدمغهم بالحجة المقنعة بفساد قولهم. وللاهتمام بها افتتحت بـ ﴿قُلْ﴾ تخصيصا لهذا بالتبليغ وإن كان جميع القرآن مأمورا بتبليغه. وجملة ﴿كَمَا تَقُولُونَ﴾ معترضة للتنبيه على أن تعدد الآلهة لا تحقق له، وإنما هو مجرد قول مزعوم عار عن المطابقة لما في نفس الأمر. [التحرير والتتوير، للطاهر بن عاشور: 110/15]

وقد اختلف الناس في معنى قوله: ﴿إِذْ آلَاءُ بَتَّغُوا الرَّايَ الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾:

فقال بعض المفسرين: إن معناه لو كان معه آلهة كما تقولون لطلب هؤلاء الآلهة الزلفى والقربة إلى الله تعالى بطاعته، ولطلبت لأنفسها المراتب العالية، والدرجات الشريفة من الأحوال الرفيعة، فيكون السبيل على هذا التأويل بمعناه في قوله: ﴿فَمَرَّ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: 17]، فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سبيلا إلى الله فكيف يعقل أن تقر بكم إلى الله.

وقال آخرون: إن معنى الكلام: لو كان معه آلهة كما تقولون لابتغوا إليه سبيلا لكي ينازعه في ملكه ويقاسموه إياه، كما هي عادة الشركاء في السعي إلى إفساد ملك شريكهم ومضاهاته في قدرته.

وعلى هذا التأويل تكون الآية بيانا للتمانع، وجارية نظير قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ إِلَهًُا لَبَسَدَا﴾ [الأنبياء: 22].

ومع وجاهة الرأيين، إلا أن الرأي الثاني أظهر؛ لأن في الآية فرض المحال، وهو وجود الآلهة مع الله تعالى، وافتراض وجودها المحال لا يظهر منه أنها تتقرب إليه سبحانه، بل الذي يظهر منه أنها تتازعه لو كانت موجودة. وهذا الرأي هو الذي يتناسب مع قوله تعالى بعد ذلك: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُفُكَّرُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

ولما أقام الله عز وجل الدليل القاطع على أن القول بإثبات الآلهة قول باطل، أردفه بما يدل على تنزيهه عن هذا القول الباطل فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُفُكَّرُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فقلوه: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ مصدر لفعل محذوف، ولذلك عطف الفعل عليه في قوله: ﴿وَتَعَالَى﴾. والتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به.

وقوله: ﴿وَتَعَالَى﴾ التعالى تفاعل إما في الشاهد والأجرام فهو من اثنين؛ لأن الإنسان إذا صعد في منزلة أو في جبل فكأن ذلك يعالیه، وهو يعالى ويرتقى. وإما في ذكر الله تعالى فالتعالى هو بالقدر لا بالإضافة إلى شيء آخر، فلا يمكن تفسيره بالتعالى بالمكان والجهة.

وقوله: ﴿عَمَّا يُفُكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي (تقولون) بتاء خطاب، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو ﴿عَمَّا يُفُكَّرُونَ﴾ بالياء.

وقوله تعالى: ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ علوا اسم مصدر على غير الفعل، فهو كقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: 17] وهذا كثير في لسان العرب.

ثم قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي: ينزهه عن هذه المقالة التي لكم والاشتراك الذي أنتم بسبيله ﴿السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ﴾، ثم أعاد على السماوات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح. وقوله: ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن. ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله: ﴿وَأَرْسَلَ إِلَهًُا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: ينزه الله ويحمده ويمجده.

واختلف أهل العلم في كيفية التسبيح: ف قيل: المراد بالتسبيح معناه المجازي، أي: إن كل شيء تبدو فيه صنعة الصانع الدالة عليه فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: 17]. وقيل: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظ عام مراد به الخصوص في كل حي ونام، وليس ذلك في الجمادات البحتة. ومن هذا قول عكرمة: الشجرة تسبح والأسطوانة لا تسبح. وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان: أيسبح هذا الخوان (أي المائدة من الخشب) يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يسبح مرة. يريد أن الشجرة في زمان نموها واغتنائها تسبح، فمذ صارت خوانا مدهونا أو نحوه صارت جمادا.

وقيل: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه. ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه أثر الصنعة لكان أمرا مفقوها، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه. وأجاب ابن عطية عن هذا الاعتراض بأن يراد بقوله: ﴿لَا تَفْغَلُونَ﴾ الكفر والغفلة، أي: إنهم يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله تعالى في الأشياء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فيه تنبيه على إملائه لهم وصفحه عنهم في الدنيا وإمهاله لهم مع شنيع هذه المقالة، أي: تقولون قولا ينزهه عنه كل شيء من المخلوقات، إنه كان حلِيمًا غفورا فلذلك أمهلكم.

ثالثا: مقاصد الآيات:

تهدف هذه الآيات إلى تحقيق جملة من المقاصد التربوية منها:

- الأمر بتدبر القرآن الكريم والاعتبار به وبما جاء فيه من أحكام وحكم ومواعظ، لكن المشركين لا يتعظون به ولا يزيدهم القرآن إلا نفورا؛ لأن قلوبهم انجبت بالشرك والمعاصي والبعد عن الله.

- الإيمان بوحداية الله تعالى الثابتة بالأدلة والبراهين العقلية.

- وحادانية الله تقتضي تسبيحه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به جل وعلا، هذا التسبيح الذي تمارسه كل المخلوقات بلسانها أو بحالها.

• هذا التسبيح والتنزيه يقتضي من المكلف عبادة الله والخضوع والانقياد لشرعه باختياره، وهي غاية خلق الإنسان، يقول الشاطبي: " المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد الله اضطراراً " [الموافقات للإمام الشاطبي: 2/289].

التقويم

- 1 - أوضح غاية تنزيل القرآن من خلال الآية الأولى.
- 2 - ما معنى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ الَّتِي لِلْغُشِيِّينَ﴾ ؟
- 3 - ما هي أقوال المفسرين في المراد بالتسبيح في الآية؟

الاستثمار

قال ابن عطية رحمه الله: " وَنَقَضِبُ شَيْئاً مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَهٌ غَيْرُهُ عَلَى مَا قَالَ أَبُو الْمَعَالِي وَغَيْرُهُ: أَنَّا لَوْ فَرَضْنَاهُ، لَفَرَضْنَا أَنْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا تَسْكِينَ جِسْمٍ وَالْآخَرُ تَحْرِيكَهُ، وَمُسْتَحِيلٌ أَنْ تَنْفِذَ الْإِرَادَتَانِ، وَمُسْتَحِيلٌ أَلَّا تَنْفِذَا جَمِيعاً، فَيَكُونُ الْجِسْمُ لَا مُتَحَرِّكاً، وَلَا سَاكِناً، فَإِنْ صَحَّتْ إِرَادَةُ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، فَالَّذِي لَمْ تَتَمَّ إِرَادَتُهُ لَيْسَ بِالْإِلَهِ. فَإِنْ قِيلَ: نَفَرِضُهُمَا لَا يَخْتَلِفَانِ، قُلْنَا: اخْتِلَافُهُمَا جَائِزٌ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ عَقْلاً، وَالْجَائِزُ فِي حُكْمِ الْوَاقِعِ. وَدَلِيلٌ آخَرُ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْاِثْنَانِ، لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يَكُونُوا ثَلَاثَةً، وَكَذَلِكَ وَيَتَسَلَّلُ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ. وَدَلِيلٌ آخَرُ: أَنَّ الْجُزْءَ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ مِنَ الْمُخْتَرَعَاتِ لَا تَتَعَلَّقُ بِهِ إِلَّا قُدْرَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يَصِحُّ فِيهَا اشْتِرَاكٌ، وَالْآخَرُ كَذَلِكَ دَابَّاً، فَكُلُّ جُزْءٍ إِنَّمَا يَخْتَرَعُهُ وَاحِدٌ. وَهَذِهِ نُبْدَةٌ شَرْحُهَا بِحَسَبِ النَّقْصِ يَطُولُ ". [المحرر الوجيز لابن عطية: 3/459].

أتأمل النص وأجيب عن الآتي:

- 1 - ما العلاقة بين مضمون النص والآيات موضوع الدرس؟
- 2 - أوضح الأدلة الثلاثة على وحدانية الله الواردة في النص مستعينا بالقواعد المنطقية.

أتأمل الآيات: 45 - 48 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: **حِجَابًا - مَشُورًا - أَكِنَّةً - وَفْرًا - مَشُورًا - قَضَلُوا .**

2 - أبحث عن أقوال المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّشُورًا﴾.

3 - أوضح معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّشُورًا﴾ مستعينا بمكتسباتي النحوية والبلاغية.